

قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة (دراسة تاريخية)

572هـ - 1186م / 1355هـ - 1936م

قسم التاريخ جامعة الملك خالد -
المملكة العربية السعودية

د. منيرة محمد عبد الله

المستخلص:

قاد حركة الرد الإسلامي للصليبية القائد عماد الدين زنكي في الموصل، ثم نور الدين ثم صلاح الدين الأيوبي. ولما كانت مصر تمثل قلب العالم الإسلامي؛ فإن حركة الرد الإسلامي امتدت إليها، ولذلك يعمل البحث على تتبع الجهود التي قام بها صلاح الدين الأيوبي في الجانب المعماري والحربي لصد الهجمات الصليبية، ويتبع البحث المنهج الوصفي، لوصف الظاهرة المدروسة، أملا في التعمق في تناولها مستقبلا. ويعتمد على المصادر والمراجع العربية المتوافرة لصياغة البحث. ويوصي البحث بتوجيه البحوث لدراسة المظاهر المعمارية التي رافقت حركة الرد الإسلامي المعاكس للصليبية. ويقترح البحث دراسة الخارطة التاريخية لحركة الرد الإسلامي وأهم مظاهرها العمرانية.

Abstract

Among the leaders of the Islamic Al-Rad Movement to the Crusader is the leader Imad al-Din Zangi in the city of Mosul, then came after Nur ad-Din and finally Salah al-Din al-Ayyubi. The Islamic Al-Rad Movement extended to the State of Egypt as the heart of the Islamic world, and this research aims to track the efforts made by the leader Salahuddin Al-Ayyubi with regard to urbanism and the Arab side in order to repel the Crusades, so this research followed descriptive method to determine the phenomenon studied before in order to help in dealing with this issue in the future. In addition to that, research relied on the Arabic sources and references available in the libraries to write this research. One of the most important recommendations of this study is to direct research to study the architectural features that occurred during the

Islamic Al-Rad Movement opposite to the Crusader. The research suggest of show back history for the Al-Rad Movement and it architectural features. One of the most important research proposals is to study the historical features of the Islamic Al-Rad Movement and its most important urban aspects therein.

مقدمة:

الإقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة مركز جغرافي عظيم الجاذبية، ووسط مجتمع بناؤه السياسي عربي إسلامي بالشرق الأوسط منذ ألف وثلاثمائة وعشرين سنة. واحتوى هذا المركز -حتى ظهور الإسلام- على دفائن فرعونية وعناصر قبطية وبقايا يونانية رومانية بيزنطية على التعاقب، وهي بقايا من حضارات بادت بعضها من حيث المزايا والبقايا والآثار. وظل هذا المركز الجغرافي الجذاب أعظم إغراء سياسي للمجتمع الأوروبي المسيحي من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى بالشرق الأوسط، وعدا ذلك فقد كان أكثر تعرضاً لما يتحرك أو يركض بين أحشاء المجتمع المسيحي الأوروبي من حركات توسعة سياسية، أو اقتصادية أو دينية أو هذه كلها مجتمعة في حركة طامعة واحدة، كما حدث عند قيام الحروب الصليبية ووصول جيوشها من مختلف بلاد غرب أوروبا إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، في طريقها إلى الشرق الأوسط وأواخر القرن الحادي عشر⁽¹⁾.

اصطلح علماء العمارة الإسلامية على تقسيم المنشآت الرائعة التي بناها المسلمون إلى ثلاثة أقسام هي: العماير الدينية، والعماير المدنية، والعماير الحربية.

وتشمل الأولى على ما شيدوه من المساجد والأضرحة، وتضم الثانية المدارس والقناطر والوكالات والقصور والأبراج والأسوار...⁽²⁾. وعندما خضعت مصر للأيوبيين نحو ثمانين عاماً، فقد ازدانت فيه القاهرة بأجمل العمارات وأرقى الفنون الإسلامية، ففي هذا العصر ظهرت بمصر المدارس المذهبية بتفاصيلها المعمارية، كما كثرت المباني الحربية مثل القلاع، والأسوار المحصنة⁽³⁾.

أسباب قدوم صلاح الدين للقاهرة:

لقد كان الشرق الإسلامي في زمن الحملة الصليبية الأولى تتنافس عليه أسرتان حاکمتان هما: السلاجقة والفاطميون الشيعة. وبفضل هذه الانقسامات التي تعرض لها العالم الإسلامي في ذلك

الوقت استطاع الصليبيون إحراز انتصارات كبرى على المسلمين، وأن يهددوا العراق باستيلائهم على الرها ومصر، أما السلاجقة فقد اختفوا من فوق المسرح الرئيسي لهذا الصراع، ولم يكن في إمكانهم رد هذا الخطر الصليبي نهائياً، بل إن الصليبيين كثيراً ما جاءوا إلى مصر لمحاربتهم في عقر دارهم، وهكذا بدا الميدان خالياً أمام الصليبيين للقيام بغزو العراق ومصر. غير أن الظروف تغيرت بقيام الأسرة الأتابكية بالموصل وريثة الأسرة السلجوقية في بلاد ما بين النهرين، فقد تمكن زنكي وابنه نور الدين من رد الصليبيين حتى المنطقة الساحلية، وعندما أدركت الوفاة محمود كانت الرها، حلب، دمشق، مصر قد اجتمعت يداً واحدة في وجه الصليبيين. وقد قام نور الدين بنقل التقاليد والنظم السلجوقية إلى الشام، ومن بعده واصل البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي وحتى أصبحت هذه النظم مزدهرة حتى العصر العثماني.

مميزات العصر السلجوقي: لقد تميز عصر ملكشاه بنظامين:-

1. فقد أدى إلى نشأة الإقطاعات الحربية في جنوبي آسيا، وكان يزور كثيراً ممالكه الواسعة وفي صحبته دائماً سبعة وأربعون ألف فارس، وكانوا يأخذون رواتبهم من الأموال التي كانت تجيء من الأراضي المخصصة لهذا الغرض في الأقاليم المختلفة من الامبراطورية السلجوقية، ثم تطور الأمر بعد ذلك حتى أصبح القواد وأعيان الدولة من الأتراك خاصة يمنحون المدن والأقاليم كإقطاعات ويحتفظون بهذه الإقطاعات بوصفهم اتباعاً للسلطان السلجوقي⁽⁴⁾.
 2. يرتبط بخطة واسعة لنشر التعليم بين أفراد الشعب، وهذه الخطة شرع في تنفيذها بفضل ما كان يتمتع به الوزير (نظام الملك) من نفوذ عظيم لدى ملكشاه، ثم بعد ذلك استكملت تطورها النهائي، وكانت هذه الخطة تقوم على إلقاء نماذج من الدراسات العليا في المدارس التي أنشأها في الدولة، ولقد ظلت المدرسة النظامية ببغداد والتي سميت بذلك الاسم نسبة لمؤسسها (نظام الملك)، وتتمتع بشهرة عظيمة في جميع أنحاء الشرق خلال عدة قرون.
- ويعتبر نظام الإقطاعات من جهة، ونظام المدارس من جهة أخرى من الخصائص المميزة للأسرة السلجوقية، ولقد برز بين أعوان زنكي ونور الدين إخوان: أحدهما كان رجل دولة، عرف بسداد الرأي ورباطة الجأش، والآخر كان رجل حرب جسور القلب، ضم الأول دمشق إلى أملاك نور الدين بدسائسه ومناوراته البارة، وفتح له الثاني القاهرة، فأما الأخ الأول فهو نجم الدين أيوب، وأما الثاني فهو أسد الدين شيركوه الأخوين من بلدة دوين التي تقع على أطراف مقاطعة أذربيجان، على الطريق الموصل

إلى آران وإلى بلاد الكرج، هما ينتميان إلى جماعة الأكراد الداودية، إحدى بطون قبيلة الهرانية الكردية الكبرى.

وقدر لشيركوه أن يموت دون أن يترك ولداً، وأما أيوب فقد ترك أولاداً عديدين وهؤلاء الأولاد هم: شامنشاه الذي توفي سنة 543هـ شمس الدولة توران شاه الذي توفي سنة 576هـ، يوسف صلاح الدين الذي ولد في تكريت سنة 532هـ وتوفي سنة 589هـ، محمد أبوبكر سيف الدين الذي ولد بدمشق 538هـ أو سنة 540هـ، وتوفي سنة 615هـ، طغتكين ظاهر الدين (سيف الإسلام) الذي توفي سنة 593هـ، فأما صلاح الدين فهو رجل رقيق الطباع، بل هو إلى الحياء والخجل أقرب، والنزاهة والبُعد عن الهوى والكرم، طيب المعشر والتقوى وله القدرة على حُسن اختيار رجاله ومستشاريه⁽⁵⁾.

صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية:

مهدت الأحوال والحوادث والظروف لسقوط الدولة الفاطمية وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما سادها من الأحوال السيئة طويلاً، وما لبث التطاحن الحربي والمنافسات بين الوزراء المصريين حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد القائد جوهر. وقد أدت وفاة شيركوه إلى صعود صلاح الدين، فابتدأت منذ ذلك عظمته، فقد وطد العزم في هذه الآونة على تأسيس إمبراطورية واسعة، وخصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد، وقد كان لنجاحه في هذا المشروع ما جعله يُلقب بحامي الإسلام، ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين وتوافق تام بينه وبين المصريين أسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني، انضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال من الجيش العناصر التي لم يكن يثق بإخلاصها، لذلك رغب نور الدين في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي، غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ رغبة نور الدين، كما كان يخشى من أن يثير هذا العمل ثورة أهالي مصر الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين، بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين التردد بأمر لا مناص لواليه من تنفيذه. وكان الخليفة العاضد مريضاً في ذلك الوقت، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدلاً من اسم الخليفة الفاطمي، فوافق بعضهم ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح، غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتي لا تطاع، وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمر، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم، ودعا للمستضيء العباسي ولم يحتج أحد على ذلك، ثم أمر صلاح الدين في الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا

باسم الخليفة العباسي، ولم يخبر العاضد فقد كان مريضاً جداً، ثم لم يلبث أن توفي في العاشر من المحرم، فجلس صلاح الدين للعزاء، وهكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد⁽⁶⁾.

العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين:

بعد أن تخلص صلاح الدين من الفاطميين كان عليه أن يكمل سلطانه، وأن يتخلص من سيادة نور الدين زنكي، وكان نور الدين يحس بأن صلاح الدين بدأ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحساب السلطة التي أرسلته إلى مصر، وقد ظل صلاح الدين يعمل في جهتين في وقت واحد، فهو من جهة يدعم سلطانه ويقوي نفسه، ومن جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين، بل يذكر اسمه في الخطبة، وينقشه على السكة، ويسترضيه بالهدايا والتحف النفيسة، ولعل أولى الخطوات التي أثار الشكوك في نفس نور الدين كانت ذلك الطلب الذي تقدم به صلاح الدين إليه بإيفاد والده إليه، وأيضاً إيفاد إخوته وذويه، وقد أحس نور الدين من ذلك أن صلاح الدين يريد تثبيت نفسه، ودعم سلطانه واستقراره بمصر، ولكن نور الدين لم يمانع في إرسال أسرة صلاح الدين حتى لا يعلن خوفه من قائده.

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يُعد نفسه لمواجهة مستقبل علاقاته بنور الدين، مع احتمال الدخول في مشكلات حربية ضده إذا عجزت أساليب السياسة عن التوفيق، ولذلك أخذ ينشئ قلعة عظيمة على جبل المقطم لينقل لها مسكنه ودواوينه وليتحصن بها إذا داهمه خطر، كما أخذ يبني سوراً حول العواصم الإسلامية الكبرى بمنطقة القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع⁽⁷⁾.

هذه القلعة لا تزال موجودة إلى اليوم قائمة بأسوارها العالية شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين، بل على القاهرة كلها، أنشأها صلاح الدين سنة 572هـ، وكان يقيم بها بعض الأيام وسكنها ابن الملك العزيز عثمان في أيام أبيه مدة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أتم بناء القلعة في سنة 604هـ وأنشأ بها الدور السلطانية⁽⁸⁾.

أصدر صلاح الدين أمره إلى وزير الأشغال في حكومته ببناء قلعة ضخمة، يضم سورها القاهرة ومصر معاً، ويقول العماد الأصفهاني عن قصة هذا المشروع الحربي: «وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة منهما بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وأمر ببناء قلعة في الوسط من مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقس، وانتهى به إلى أعلى مصر ببرج وصلها بالبرج الأعظم»⁽⁹⁾.

واختار صلاح الدين لهذه القلعة مكاناً استراتيجياً مهماً يشرف منه على الداخل والخارج، وليمكن من قمع أي فتنة في مهدها، وليمكنه من رؤية الأعداء ومحاصرتهم إذا داهموه بالعدوان.

وابتدأ هذا المشروع على نطاق واسع بتكاليف باهظة وأشار الدكتور نظير سعداوي في كتابه التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي إلى أن «القلعة عبارة عن بناءين أحدهما وهو المدخل الحالي للجزء الشمالي على شكل مستطيل، شيدت في سوره أبراج مستديرة حصينة خارجة عن السور ملتصقة به وبارزة عنه ومتباعدة عن بعضها مسافات مقدره بالنسبة إلى مرامي الأسلحة المستعملة وقتذاك والوصول إلى هذا الجزء الشمالي في العصر الحاضر يكون باختراق الباب الجديد الذي أنشأه محمد علي، ويرتكز الجانب الأيسر من هذا الباب على باب المدرج القديم ثم يظل الزائر متجهاً صوب الجنوب حتى يخترق بالباب (الوسطاني)، ومن ثم يواجه جامع محمد علي وجامع السلطان الناصر فإذا ترك ناصية اليمين وانحرف إلى اليسار وجد نفسه أمام باب القلعة وهو المدخل الحالي للجزء الشمالي من القلعة ويقوم على جانبيه برجان كبيران، ثم إذا اخترق الزائر باب القلعة وسار في الاتجاه الشرقي مع السور وصل إلى برج المقطم، وهو حلقة الاتصال بين الجزء الشمالي من القلعة والجزء الجنوبي منها، ويتفرع من برج المقطم خطان من التحصينات الحربية، أحدهما جنوباً لسور الجزء الجنوبي من القلعة وبه ثلاثة أبراج من طراز معين، على حين يتجه الثاني شرقاً لسور الجزء الشمالي من القلعة»⁽¹⁰⁾.

ومهمة برج المقطم الإشراف على الاتجاهين: الشمالي والجنوبي، ولا يزال البرج محافظاً على مظهر الضخامة، وبه صهريج ماء كبير وعلى مسافة 90 متراً شرقي برج المقطم، يجد الزائر نفسه داخل برج كريكلان*، ويظل السور بين هذين البرجين الكبيرين، في تلك المسافة برجان صغيران هما: برج سفتا وبرج العلوة، ثم يبرز من السور على بعد 5 أمتار إلى برج المطر، وهذا البرج الأخير مستدير طوله 25 متراً، وهو في الواقع برجان متلاصقان وشكل كل منهما دائري ويخرج من برج المطر ستار طوله 59 متراً ينتهي عند برج المبلط المقام على الزاوية الجنوبية، وهو نهاية السور الجنوبي من الجزء الشمالي من القلعة وأن السور من برج المقطم إلى مسافة مستوية، وبقيته على صخرة عمودية يبلغ ارتفاعها 908 أمتار وهي تدور مع قاعدة برج المبلط وتظل متصلة من بدايتها بالسور الشرقي ثم تأخذ في الابتعاد عنه بمقدار 7 أو 8 أمتار، وبرج المبلط أقرب أجزاء القلعة لمسافة للمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما 350 متراً ويبدأ السور الشرقي من برج المبلط في اتجاه 175 متراً

على استقامة واحدة، ويقطعه برجان نصف مستديرين يسمى أحدهما برج المقصورة، ويقسمانه إلى ثلاثة أجزاء أطوالها 55، 53، 43 متراً على الترتيب، وتتكون الأبراج من طبقتين لكل حجرة من حجراتها ثلاثة مداخل، وتنتهي المداخل بممرات جانبية من الستائر من طبقتين لمسافة 7 أمتار، وتنتهي الصخرة الموازية لل سور من الخارج بانتهاء برج الإمام وإذا ترك الزائر برج الإمام، وصل إلى برج المستدير على مسافة 66 متراً، وعلى مسافة 22 متراً منه يقع برج الحراء، وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم وهو الطريق الذي يخترقه القادم إلى القاهرة من الجنوب إذا ما تعذر عليه دخولها من الشمال⁽¹¹⁾.

وهذا يوضح سبب وجود باب سري في السور على بُعد مترين من باب الحديد لتخرج الحامية وتحول دون مرور العدو بهذا الطريق، ويمتد السور الشمالي من برج الحراء إلى برج الزاوية الشمالية الغربية وطوله 650 متراً من الشرق إلى الغرب⁽¹²⁾.

وأ أنه بالرغم من قصر المدة التي قضاها صلاح الدين في القاهرة فقد رغب في أن يجعل القلعة مقراً لسكنه. وإنشأؤه لها يعود إلى حملاته في الشام حيث لا تخلو مدينة شامية من قلعة فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتتمت مشيئته⁽¹³⁾.

وهذا ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال: «كان السلطان لما ملك مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يحميها، فقال: إن أفردت لكل واحدة سوراً احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنني أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ، وأمر ببناء القلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم». وأن المهندسين العسكريين في القرن الثاني عشر لهم حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن المعمار فإن عملهم لا يزال واضحاً للعيان في القرن العشرين⁽¹⁴⁾.

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة عام 1177م وأقام على عمارتها بهاء الدين قراقوش الأسدي الخصي أحد أمرائه المخلصين ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة ما نقرأه حتى يومنا هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحرسة القاهرة التي جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصناً مولانا الملك صلاح الدين والدين المظفر يوسف ابن أيوب محي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهد الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته

قراقوش بن عبد الله المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين وخمسائة» أي في عام 1183م - 1184م⁽¹⁵⁾.

ولكي يشيد صلاح الدين القلعة هدم عدداً كبيراً من الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجده بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجدوه في موقع البناء من المساجد وأزال القبور وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار، الأسرى الفرنج الذين أسرهم صلاح الدين في معاركه - ولقد زار السائح الأندلسي ابن جبير القاهرة في عام 1883م فشهد الأعمال التي كان يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيراً جداً، ولقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية⁽¹⁶⁾.

أسباب اختيار القلعة:

تذكر الروايات أن هنالك عدة أسباب منها: قيل أن السبب الذي حدا به اختيار مكان قلعة الجبل: «أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك»⁽¹⁷⁾.

والواقع أن هذا التعليل لا يستند رغم طرافته إلى أساس علمي سيما وأنه قد ذكرت أيضاً قصة مماثلة عند اختيار الخليفة العباسي المنصور لموقع مدينة بغداد، بل أن الأقرب إلى الصحة هو أن مكان القلعة قد أُختير لأغراض استراتيجية لا يتوفر وجودها في مكان آخر، وأن جبل المقطم تبرز فيه أكبر الكتل الصخرية المنفردة والتي تشرف من الوادي كله، وقد أشار المقريزي نفسه إلى ذلك في موضع آخر من خطه بقوله: «هذه القلعة على قطعة من الجبل وهي تتصل بجبل المقطم وتشرف على مصر والقاهرة والنيل والقرافة». وقد عرف هذا المكان في العصر العباسي باسم قبة الهواء نسبة إلى قبة كان قد بناها هرثمة بن أعين وقد خربت هذه القبة في العصر الطولوني وشُغل هذا المكان بمجموعة من الأضرحة والمساجد الفاطمية التي أزيلت بسبب عمارة القلعة الحربية⁽¹⁸⁾.

ولم تكن قلعة القاهرة أو أعمال التحصينات الحربية التي فكر في إنشائها صلاح الدين هي الأولى في مصر، فقد سبقتها أعمال أخرى أهمها السور الحجري الفاطمي الذي بناه بدر الجمالي حول القاهرة، ولم يلبث أن بدأت أجزاء كثيرة منه في الانهيار وخاصة عند ضلعه الشرقي وقد أشار

إلى هذه الحقيقة أبو شامة حيث قال: « وفي هذه السنة 566هـ/1171م شرع السلطان صلاح الدين في عمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً⁽¹⁹⁾ ».

وتوالى أحداث كثيرة جعلت صلاح الدين يتحول إلى مشروع آخر أكبر يحتاج إلى زمن أطول وأموال أوفر، ويتحقق مع مركزه بعد أن أصبح سلطاناً واسع النفوذ مطلق السلطة ومن أهم الأحداث القضاء على الفاطميين سنة 567هـ/1171م ثم استيلائه على مملكة سيده بالشام والعراق⁽²⁰⁾. وقد أفاد صلاح الدين فوائد كثيرة في شؤون الحرب التي مارسها في الشام خلال جهاده في سبيل توحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين في الشرق العربي. وأحس صلاح الدين بما طرأ عليه من تغيير في أفكاره وخططه الحربية إذ أدرك وهو بالشام ما قامت به القلاع وخاصة في حلب والكرك من دور فاصل في المعارك الحربية فقد تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار⁽²¹⁾. وقد ذكر المؤرخ لين بول في كتابه عن صلاح الدين: «مما دفع صلاح الدين إلى بناء القلعة رغبته في أن تكون حصناً يُدافع به عن أسرتِه وعن مصر إذا اجتاحتها سيده نور الدين زنكي». ولكن هذا غير صحيح إذ إن صلاح الدين لم يشيد القلعة إلا بعد وفاة نور الدين بعامين، أي سنة 572هـ. وفي 16 من ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وخمس مائة بعد ما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج شرع صلاح الدين في بناء قلعة الجبل وعمل السور وحفر الخندق حوله⁽²²⁾. وفي الواقع لم تكن هناك أسلحة معروفة وقتذاك قادرة على قذف شحاناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما وأن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم في قيظ الحر وصعوبة توفر الماء في هذا المكان وإذا حاول المهاجمون الاقتراب من أسوار القلعة فإن الخندق حولها يمنع من اقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقمم المقطم لا تيسر للمهاجمين القيام بحركات تكتيكية بشيء من الحرية⁽²³⁾. وأن صلاح الدين جلب أحجار البناء للقلعة من بعض أهرامات الجيزة وكما ذكر عبد اللطيف البغدادي وغيره من الكتاب الذين جاءوا من بعده قال: «لقد ترك صلاح الدين كتابه على باب المدرج في الناحية الشمالية من القلعة سنة 579هـ»⁽²⁴⁾.

وهذه الكتابة التاريخية وهي في تسعة أسطر بخط النسخ الأيوبي على لوحة من الرخام مساحتها 125 سم × 69 سم. «بسم الله الرحمن الرحيم»، «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا {1} لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا {2} وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا {3} سورة الفتح، الآيات: (1-3).

ولا تتركز أهمية هذا النص في تحديد التاريخ 579هـ/1183م الذي يثبت أن القلعة أو على الأقل الجزء الكبير منها لم يتم حتى سنة 579هـ، إذ المعروف تاريخياً أن صلاح الدين غادر مصر سنة 578هـ/1182م ولم يعد بعد هذا التاريخ إلى مصر⁽²⁵⁾. والغالب أن القلعة كانت في سنة 578هـ عند سفر صلاح الدين من القاهرة وقد أوشكت على التمام، ولكن صلاح الدين لم يتمكن من أن يتخذها موقع سكناه فترك لأخيه العادل ابن بكر بإتمامها. أما الأهمية الأثرية لهذا النص التاريخي فتتركز كذلك في أنها تقدم أمثلة استعمال خط النسخ على الآثار من المستحدثات الفنية التي أدخلها صلاح الدين في ميدان الفنون وجاء استحداثه مؤذناً بزوال عصر الخط الكوفي المزهر المجدل الذي شاع في العمارات والتحف الفاطمية في القاهرة المعز⁽²⁶⁾. ومن المعالم المعمارية التي ترجع إلى عصر صلاح الدين في قلعة القاهرة (بئر يوسف) تقع في المساحة الجنوبية من القلعة حيث الملحقات، وتقع الآن في الجهة الجنوبية الشرقية من جامع الناصر محمد وعمق هذه البئر 89 متراً تقريباً وتنسب للأساطير الشعبية هذه البئر إلى سيدنا يوسف وليس هناك أساس علمي وتُعرف هذه البئر أيضاً باسم (الحلزون)⁽²⁷⁾.

مصادر مياه القلعة:

كانت مياه النيل العذبة تصل إلى القلعة في عهد صلاح الدين وخلفائه من الأيوبيين بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط إلى القلعة وما زالت بعض بقاياها موجودة إلى اليوم. فلما كثرت مبانيها بساكنيها أنشأ الناصر محمد بن قلاوون في سنة 710هـ/711-1312م أربع سواق على النيل تنقل الماء إلى السور ثم من السور إلى القلعة ولما أتم الناصر محمد هذا العمل غرس الميدان تحت القلعة بالأشجار وملأ السواقي أراد تقوية المياه وذلك في سنة 741هـ/1340، فأمر بعمل سواق عند ساحل النيل اتصلت بها قناطير امتدت واتصلت بالقناطر القديمة (صلاح الدين) كي تتجمع المياه في مستودعين وتكون قوية تغذي مرافق القلعة والميدان معاً⁽²⁸⁾.

وقد عني بهذه القناطر حكام مصر باعتبارها جزءاً مهماً مكملاً للقلعة فأصلحها الملك الظاهر برقوق، كما أصلحها السلطان قايتاي سنة 885هـ/1480م وما زال اسمه منقوشاً على قنطرة منها بالركن القبلي الشرقي المتجه إلى الفسطاط عند قرافة السيدة نفيسة⁽²⁹⁾. وفي عام 912هـ/1506م أمر السلطان قانصوه الغوري بإبطال المجرى القديم عند درب الخولي، وشرع في بناء مأخذ وهي ست سواقي على النيل عند فم الخليج، ترفع الماء إلى أعلاه وتصبه في أحواض، أحكم جريان الماء فيها واندفاعها إلى مجراها على ظهر القناطر التي أنشأها والتي امتدت حتى تلاقت بالقرب من مشهد السيدة نفيسة ببقايا قناطر الناصر محمد، ثم بسور صلاح الدين القديم ونقش اسمه عليها وقد اشتهرت الأعمال فيها سنة 914هـ/1508م، واحتفل بإدارتها وجريان الماء فيها إلى أن وصل إلى الميدان تحت القلعة، كما صعد بواسطة سواقي أخرى تملأ صهاريجها، وظلت تؤدي عملها إلى القرن التاسع عشر⁽³⁰⁾.

أعمال صلاح الدين والعادل في القلعة:

يعزى إلى صلاح الدين بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية، ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقي لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذي يشغله الآن المتحف الحربي ويُنسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلي من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذي يمتد جنوبه بما في ذلك الجزء الخلفي من البرج النصف الدائري الكائن بين الباب الأخير والباب الأوسط أي أن صلاح الدين بنى هذا السور كاملاً على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به إذ إنه استدعى لفلسطين في الحادي عشر من شهر مايو سنة 1182م في ظروف عصيبة خلال الحروب الصليبية فغادر القاهرة وسورها وخاض هنالك حروباً أدت في نهايتها إلى انتصاره وأخذ بيت المقدس في شعبان سنة 853هـ/أكتوبر 1187م⁽³¹⁾.

ولما خلفه أخوه العادل كانت الأمور قد استقرت قليلاً ووقفت الحروب مؤقتاً، فانتهاز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وما له من النفوذ وبما تحت تصرفه من موارد الممتلكات الأيوبية أن يعيد تحصين المواقع الحربية المهمة في دولته الوسيعة، وما تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى والقاهرة وأطلال حصن جبل طابور شاهدة على جهوده الكبيرة⁽³²⁾.
ويُنسب إلى الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلي وهي: برج الصفة، وبرج قربلان، وبرج العلوة، والزيادة التي أضيفت لباب القرافة، والجزء الخارجي ببرج الرملية، وبرج الحداد، والجزء الداخلي ببرج الصحراء، والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور، وقد ختمت أعمال العادل سنة 604هـ/1206م-1207، ثم استأنفها ابنه الملك الكامل وكان أول من سكن القلعة من الأيوبيين⁽³³⁾.

القلعة في عهد السلطان الكامل (604-635هـ/1207-1238م):

قال ابن عبد الظاهر: «والملك الكامل هو الذي اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها البرج الأحمر وغيره فأكملت في سنة 603هـ وتحول إليها من دار الوزارة». وقد بنى الكامل في القلعة إيواناً، وباباً للقصور السلطانية سماه باب السر، وباباً يصل لحصن القلعة أو الجزء الشمالي منها بالجزء الجنوبي وهو المدينة السلطانية ويسمى هذا الباب باب القلعة، وكذلك الاصطبلات السلطانية، وبعض الأبراج، وأبراج الحمام، وخزانة الكتب، ولعله شيد كذلك مسجداً أو مقراً للوزير يسمى قاعة صاحب، وفي القرن الخامس عشر لم يكن باقياً من هذه المنشآت إلا الشيء القليل⁽³⁴⁾.

ومع أن السلطان الكامل هو الذي نقل لأول مرة مقر الحكم والإدارة إلى القلعة فإن سيادة العنصر العسكري في البلاد لم تتم في عهده وإنما في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي عظم نفوذ المماليك في عهده وشيد لهم قلعة الروضة فسموا المماليك البحرية ولكنهم رجعوا إلى قلعة الجبل عندما استقرت في أيديهم مقاليد الحكم، ولم تلبث العمائر أن قامت على أنقاض المقابر التي كانت تفصل هذه القلعة عن القاهرة⁽³⁵⁾. ومن منشآت السلطان الكامل في القلعة - الإسطبل العثماني - الذي كان ملحقاً بالقصر، ولم يذكر أحد المؤرخين المسلمين تاريخ إنشائه ونراهم متفقين على ذكره بين منشآت عهد السلطان بيبرس. ومن أعمال الكامل أيضاً الميدان السلطاني تحت القلعة ومن منشآته قاعة الصحاب - أي قاعة الوزير - وكان أول من شغلها صفي الدين بن شكر وزير الكامل. وقد كان موجوداً في أيام السلطان بيبرس جامع تلقى فيه الخطبة، ولا يبعد أن يكون الكامل هو المشيد له، وشيد مكان هذا الجامع جامع محمد بن قلاوون⁽³⁶⁾. ومنشئ أبراج الحمام الملك الكامل، وقد ذكر ابن عبد الظاهر في كتابه «تمائم الحمام» أن أبراج الحمام قد بلغ عددها 687 ألف و900 طائر كان يُستخدم الحمام في نقل الرسائل ومما يذكر في هذا السياق أنه كانت هناك مراكز حمام في سائر نواحي المملكة في مصر والشام بين أسوان والفرات⁽³⁷⁾.

خزانة الكتب:

وهذا عمل آخر للملك الكامل - خزانة الكتب - التي دمرها حريق سنة 691هـ/1292م، وكانت في الأصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، لما أمر الكامل بوضع اليد على داره ونقل مكتبته إلى القلعة، وقد كان ذلك في يوم الأحد الموافق لليوم الخامس من جمادي الأول سنة 626هـ، ثم نُقلت المجلدات النفيسة في اليوم السادس والعشرين وكانت تتألف من ثمانية وستين ألف مجلد، وبعد أيام حملت الخزائن الخشبية في تسعة وأربعين حملاً، وقيل أنه كان من جملة الكتب المستولى عليها كتاب الأيك والغصون لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً، وقد جمعها القاضي الفاضل في مكتبات الفاطميين⁽³⁸⁾.

وفيما يلي ملخص لأعمال الكامل في قلعة الجبل:

1. الإيوان.
2. باب السر المؤدي للقصور السلطانية.
3. باب يصل بين قلعة الجبل (المدينة العسكرية) والقلعة (المدينة السلطانية) واسمه باب القلعة.
4. الاسطبلات السلطانية.
5. الأبراج.
6. أبراج الحمام.
7. خزانة الكتب.
8. قاعة الصاحب (الوزير).
9. الجامع.

القاعة الصالحية: عقب وفاة الملك الكامل سنة 1238م إلى انتهاء حكم الأيوبيين في مصر سنة 1250م لم يشيد أحد من سلاطين هذه الأسرة في القلعة ما يستحق التنويه، ونكتفي بذكر القاعة الصالحية التي أمر بإنشائها الملك الصالح نجم الدين أيوب (1240م-1249م) وظلت سكن الملوك إلى أن احترقت في 6 ذي الحجة سنة 684هـ. ولكن الملك عز الدين أيبك بعد أن استقر بالقلعة قد أهمل إيوان الكامل واتخذ المدرسة الصالحية مقراً للحكم والنظر في الشكاوي، وقد تنسب إليه قاعة الأعمدة⁽³⁹⁾.

القلعة في عهد المماليك:

بعد زوال ملك الأيوبيين أقام الملك المعز (نجم الدين أيبك) بالقلعة، وقد أصبحت القلعة منذ ذلك الحين مقراً دائماً للسلطنة، ولم يقيم المعز أي منشآت جديدة بالقلعة بل أنه يبدو ترك الجلوس في إيوان الملك الكامل، ومن المعروف أنه كان يجلس للنظر في المظالم بالمدرسة الصالحية وبصحبه نواب دار العدل⁽⁴⁰⁾.

هذا ويذكر ابن إياس أيضاً عن شجرة الأدر: «وكذلك تُنسب إليها نوبة⁽⁴¹⁾ خاتون التي تدور في القلعة بعد العشاء، وقد جاء ذكر هذه النوبة أيضاً على لسان غيره من المؤرخين بقوله: (نوبة خاتون هي قفل تقليدي جرى العرف على إقامته كل مساء بقلعة الجبل، حيث يجتمع هناك عدد كبير من الطبالين والزمارين وكان يترأس هذه النوبة أحد ممالك والي القلعة وهو بلباسه الرسمي الكامل، كما كان يمسك بيده عصا مذهبة وأمامه يقف أحد حملة المشاعل وبيده مشعل صغير يلعب به في خفة ورشاقة على أنغام الطبول والزمور)⁽⁴²⁾.

والمقريزي يقول: «أنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون أقيمت على باب ذويلهليلية تُدق كل مساء عقب صلاة العصر وكلمة (الحليلة) التي ذكرها المقريزي يترجمها فان برشم ترجم بكلمة (روزيه Rouzee) في كتابه (وصف مصر) هذه الكلمة بأنها نوع من أنواع الطبول الضخمة فالمقريزي في وصفه للباب المدرج يقول: (ومن خارجه تُدق الحليلة قبل المغرب)⁽⁴³⁾. يقول ابن إياس، بما لا يدع مجالاً للشك بأن الحليلة عبارة عن (آلة) شبيهة بالطبول وتُدق كل مساء عند حلول وقت النوبة، غير أن عبارة الجوهري يفهم منها أن الحليلة اسم تُعرف به إحدى الأبنية وقياساً على ذلك فلنذكر أن كلمة (طبلخانة) تعني مجموعة الطبول التي يُدق عليها، كما تعني الدار التي يقيم بها الضاربون على الطبول، فالحليلة نوع من الطبول ويبدو أن هذه الكلمة معبرة للنشأة وأصلها لا بد أن يكون مستمداً من التقاليد الحربية لسلاطين المماليك⁽⁴⁴⁾.

وشجرة الدر هي التي دفعها حقدًا على زوجها الملك المعز - الذي يدين لها بعرش السلطنة - إلى التآمر على قتله في الحمام بالقلعة بعد أن عرفت أنه ينوي الزواج عليها، وقد نالت بدورها جزاء ما اقترفت يداها، فقام بتعذيبها ممالك زوجها إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة، ثم أُلقيت في خندق القلعة حيث ظلت بضعة أيام نهباً للكلاب، وبعد شجر الدر والملك المعز جاء الملك المنصور ثاني سلاطين المماليك الذي لم يترك عهده أي أثر في تاريخ السلطنة المملوكية، وكذلك السلطان الثالث الملك المظفر (قطز) لقصر عهده وانشغاله بمحاربة المغول في سوريا⁽⁴⁵⁾.

القلعة في عهد الظاهر بيبرس: - هو رابع السلاطين المماليك وأعظمهم شهرة، هو الذي أدار شؤون دولته وقاد الجيوش الظافرة ضد المغول والصليبيين والروم في أرجاء آسيا الصغرى والشام وأعالى الفرات والنوبة، وهذا يدل على أنه أحد أفراد ذلك الطراز النادر من سلاطين مصر بل ملوك العالم أجمع.

عمر بقلعة الجبل دار الذهب وبرحة الجبارج⁽⁴⁶⁾ وهي قبة عظيمة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطليتين على رحبة الجامع⁽⁴⁷⁾، وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة وأخرج رواشن⁽⁴⁸⁾، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها⁽⁴⁹⁾.

وأنشأ جواره طباقاً للماليك، وأنشأ تجاه برجية بباب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد، وكان في موضعها حفير وعقد عليه ستة عشر عقداً، لأنه كان يكره سكن الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية. ويرى كازانوف أن دار الذهب والقاعة الظاهرية والدار الجديدة اسماً على مستوى واحد، وأنه لم يرد بالتفصيل شيء عن كل واحدة منها في كتب المؤرخين المعاصرين، وهناك برج أمر بتشيدده الظاهر في الزاوية المجاورة لباب القلعة، وهذه القلعة التي عرف بها الباب الذي تسمى بها، ثم هدمها الملك المنصور قلاوون ثم جدد باب القلعة على ما كان عليه في أيام المقرزي^(١). وشيد أيضاً دار العدل القديمة التي بناها بيبرس ومكانها اليوم إلى اليمين الداخلي إلى القلعة ويشغلها ميدان سارية العلم وقد بُنيت هذه الدار (دار العدل) في سنة 661هـ وصار السلطان يجلس بها لعرض العساكر في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وقد بدأت بالحضور في سنة 662هـ 1264م -م فوقف إليها ناصر الدين محمد بن أبي نصر وقد أخذ له بستان في أيام المعز أبيك وهو بادي المقطعين، وأخرج كتاباً مثبتاً وأخرج من ديوان الجيش ما يشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان، فأمر برده عليه فتسلمه واحضرت مرافعته في ورقة مختومة وضعها خادم أسود فأملاه القاضي شمس الدين شيخ الحنابلة تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى أن تزول دولته لأنه لم يجعل للحنابلة مدرساً في المدرسة التي أنشأها بخط بين القصرين ولم يول قاضياً حنبلياً وذكر عنه أمور فادحة، فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ مخضر، وحلف أنه ما جرى منه

شيء وأن هذا الخادم طرده فاختلف على ما قال، فقبل السلطان عذره وقال: ولو شتمتني أنت في حل وأمر بضرب الخادم مائة عصا⁽⁵⁰⁾. وغلّت الأسعار بمصر حتى بلغ إردب القمح نحو مائة درهم وانعدم الخبز فنادى السلطان الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ونزل في يوم الخميس سابغ ربيع الآخر منها، وجلس بدار العدل ونظر في أمر السعر وأبطل التسعير، وكتب مرسوماً إلى الأمراء ببيع خمسمائة إردب في كل يوم ما بين مائتين إلى ما دونهما وأن يكون البيع للضعفاء والأراذل فقط دون من غيرهم وأمر بكتابة أسماء الفقراء⁽⁵¹⁾؛ وقال والله لو كان عندي غلة تكفي هؤلاء لفرقتها، ولما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفاً وجعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفاً، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء، بعدد رجاله. وما برحت دار العدالة باقية إلى أن استحدث السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان فهجرت فظلت مهجورة إلى أن هدمها قلاوون في عام 722هـ/1322م وقام على بقايا الطبلخانة⁽⁵²⁾.

باب الدرفيل:

هو باب سارية أو المدرج الذي أصبح على أيامه باسم باب الدرفيل، وهو اسم لأحد قادة جيوش بيبرس، وهو الأمير حسام الدين لاشين الأيدمرى، وكان يشغل منصب الدوادر وقد وافته المنية في سنة 672هـ/1273-1974م. وهناك رأي آخر يقول إن باب الدرفيل هو باب آخر لا يتصل بباب سارية أو المدرج. وفي الفترة القصيرة التي تربع فيها على العرش السلطان بركة خان بيبرس - ذكر برج الرفرف وإن كان المقريري يعزو بناءه إلى الملك الأشرف خليل بن قلاوون⁽⁵³⁾.

القلعة في أيام السلطان المنصور قلاوون 679هـ-1279م:

كان أول ما شيده قلاوون في القلعة - القبة - التي أقامها في سنة 685هـ/1286م وإلى قلاوون يعزى بناء (دار البلدية) في سنة 687هـ/1288م وقد قطنها الأمير حسام الدين طرنتايومن بعده من نواب السلطنة وقد أنشأ قلاوون أشتاتاً من الأبنية لسكن مماليكه بالقلعة كما هيأ برجاً على مقربة من باب السر.

شبَّ حريق هائل في عام 684هـ/1285م ودمر القاعة الصالحية، وفي أيام خلافة ابنه الخليل 689هـ/1290م اندلع حريق آخر وعمر الخليل بن قلاوون برج الرفوف، ويقول المقريري عنه أنه: قد جعله عالياً يشرف على الجيزة كلها، وبيضة وصور فيه أرجاء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها، وكان له مجلس يجلس فيه السلطان واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 712هـ/1312م⁽⁵⁴⁾.

القلعة أيام الناصر محمد بن قلاوون:

انفرد الناصر بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه، فقد استمرت أيام سلطنته الثالثة وحدها اثنين وثلاثين سنة تقريباً، كما امتاز هو عن معظم هؤلاء السلاطين بحب عميق للبلد الذي ولد تحت سمائه وترعرع في أحضانه،

ذلك الحب الذي انعكس بأحلى صور فيما قام به من تعمير البلاد، وقد سار على نهجه الناس في عصره، «وكأنما نوذي في الناس ألا يبقى أحد حتى يعمّر، وذلك أن الناس على دين ملكهم». كما يقول المقرئ في سلوكه والواقع أن منذ قدوم الناصر من الكرك في سلطنته الثالثة إلى أن مات وهو في حركة تعمير متواصلة للبلاد، لا يكاد ينتهي من مشروع حتى يبدأ مشروعاً آخر، وقد كانت كلها مشروعات حيوية عظيمة الفائدة للبلاد، قصد بها منفعة الناس عامة والفلاحين خاصة أي أنه يهدف إلى زيادة الدخل القومي للبلاد⁽⁵⁵⁾.

والمنشآت التي أقيمت لمصلحته الخاصة لا تكاد تتعدى ثلاثة هي: القاعات السبع التي بناها لأجل جواريه داخل القلعة في المكان الذي يشغله اليوم قصر الجوهرة، القاعات السبع التي أنشأها خارج قلعة الجبل في المنطقة المعروفة اليوم بقلعة الكباش قرب مسجد ابن طولون، وقد خصصها لبناته لينزلن فيها للفرجة على مواكب السلطان في اتجاهها إلى الميدان الكبير، والآبار العشرة التي أمر بحفرها وجعل عمق كل منها نحو أربعين ذراعاً (أي ما يقارب من عشرين متراً)، وأمر بتركيب السواقي عليها حتى يرتفع الماء من النيل إلى القناطر ويجري عليها إلى القلعة حتى تزيد بذلك كمية المياه في داخل القلعة، وهذا المشروع الأخير لم تقتصر فائدته على شخص الناصر وأسرته لأن القلعة كانت يومئذ مقر الحكم وكانت فيها دواوين الدولة وقصور الأمراء⁽⁵⁶⁾. نجده قد عمر خارج سور القاهرة الفاطمي خمسة أحياء مستحدثة فازدهرت عاصمة ملكه وامتدت مساحتها، ويلاحظ هوايته للفنون الإسلامية حيث أن غالبية معروضات المتاحف الفنية في أوروبا وأمريكا والشرق من مخلفات عصر الناصر محمد وأمراء دولته وكبار رجالته⁽⁵⁷⁾. ومنشآت الناصر محمد في القلعة تناولها المؤرخ كازانوف في كتاب تاريخ القلعة بالتقسيم إلى ثلاثة أقسام:

1 / المنشآت التي ما زالت باقية إلى اليوم وهي:

أ. الجامع.

ب. البرج.

ج. الكتابة المنقوشة على باب السارية.

2 / المنشآت التي كانت باقية أيام الحملة الفرنسية هي:

أ. الإيوان.

ب. القصر الأبلق.

ج. الأسطة السلطانية.

3/ المنشآت التي أتى وصفها في كتب المؤرخين؛ شهاب الدين والقلقشندي والمقريزي⁽⁵⁸⁾:-

- أ. القصور الجوانية .
- ب. باب القلعة.
- ج. السبع قاعات.
- د. دار النيابة.
- هـ. باب النحاس.
- و. الطباق - ثكنات الجند.
- ز. الطبلخانة.
- ح. الحوش.
- ط. الاسطبلات.
- ي. الميدان.
- ك. قناطر مياه القلعة.

القلعة في أعقاب عصر الملك ناصر بن قلاوون:

ففي أيام خلفاء محمد بن قلاوون - الأبناء والأحفاد - شيد بعضهم طائفة من القاعات والقصور الصغيرة، كان منها قاعة الدهيشة والبيسرية.

قاعة الدهيشة:

عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون في سنة 745هـ، وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة أنه عمر بحماة دهيشة لم يبني مثلها فقد قصد مضاهاته، وبعث الأمير أقبغا المهندس لكشف حماة وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بعمل ألفي حجر أبيض وألفي حجر أحمر من حلب ودمشق، وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة الجبل، واستدعي الرخام من سائر الأمراء وجميع الكتاب، ورسم بإحضار الصنّاع للعمل، وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات. ولم يستطع أحد بعد من تفسير كلمة دهيشة فقد تكون (حماماً) أو ما يشبه المدرسة أو الربع⁽⁵⁹⁾.

قاعة البيسرية:

وشيد السلطان الملك الناصر حسن، أحد أبناء الملك محمد بن قلاوون، الذي اشتهر مسجده الرائع قبالة القلعة - قاعة البيسرية - ويقول عن هذه القاعة المقريري: كان ابتداء بنائها في أول يوم من شعبان سنة 761هـ، ونهاية عمارتها في الثامن من ذي الحجة، وعمل لهذا القاعة من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمة تحت حصر، فمن ذلك تسعة وأربعون ثرياً بسرم وقود القنابل، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مئتا ألف وعشرون درهم، وكلها مطلية بالذهب، وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولاً في السماء ثمانية وثمانين ذراعاً، وعمل للسلطان لها برجاً يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه وأكتافه وباب يدخل منه وفيه مقرنص قطعة واحدة، يكاد يذهل الناظر إليها بشبابيك ذهب خالص وطرازات ذهب مصنوع وشرافات ذهب مصوغ صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب، ويصدر إيوان هذه القاعة شباك نهايته باب زويلة يطل على جنيّة بديعة الشكل⁽⁶⁰⁾.

القلعة في عهد السلاطين الجراكسة ١٣٨٢-١٥١٧م:

جرى ملوك أسرة الجراكسة على السكن في أبراج القلعة، وتركوا جزيرة الروضة حيث عاش معظم المماليك البحرية، وأول سلاطين الجراكسة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق (784هـ/1382م)، ومن أعماله أنه جدد عمارة القناة التي تحمل مياه النيل إلى قلعة الجبل، وجدد عمارة الميدان من تحت القلعة بعد ما أضناه الخراب، بل وزاره ووزع فيه القرط وغرس به النخيل، وعمر صهرجياً يملأ بالمياه ومكتباً لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم، وجعل عليه وقفاً كما عمر أيضاً بالقلعة طاحوناً وسبيلاً تجاه باب الضيافة قبالة

القلعة، وابتاع بسطاً لدار العدل سنة 787هـ / 1385م⁽⁶¹⁾. وأمر ببناء حائط بين الدرفيل وسور القلعة، وأن أقام حائط آخر في جوار باب الدرفيل إلى الجبل، وسد باب الدرفيل وباب سارية (الباب المدرج) تحت دار الضيافة. وهناك كتابة منقوشة تعزز أعمال التحصين التي سلفت، وهي بادية في جدار القلعة الذي يعزى إلى الخديوي؛ أمر تجديده⁽⁶²⁾.

القلعة في أيام العثمانيين 1517م - 1798م

بعد قيام السلطان سليم الأول بقياد حملة إلى مصر سلم مقاليد الحكم إلى الأمير خير بك الذي خان سيده السلطان الغوري وانضم إلى العثمانيين، وما أن تسلم زمام الأمر حتى صعد إلى القلعة في موكب فخيم مخترقاً الصليبة بالفجر، واستولى عليها، تحدوه الرغبة في إصلاح مبانيها، فأرسل في طلب البنائين والنجارين والمبطلين ليصلحوا ما أفسده العثمانيين⁽⁶³⁾.

دأب خير بك على إصلاح القلعة بينما كان العثمانيون دائمي السطو على دور الأتربة، فينزعون أبوابها وسقوفها ونوافذها ويحملونها على الجمال لبيعها في الأسواق بأبخس الأثمان، بل أكثر من ذلك كان جنودهم ينزعون أخشاب طباق القلعة ويستخدمونها في إيقاد النار لطهو طعامهم. وكان الأمير خير بك قد أمر قائد جنود الانكشارية بالصعود إلى القلعة وإحضار مكاحلهم وبنداقهم معهم فلمّا وصلوا إلى ثكناتهم امروا بإدخال تلك المكاحل والأسلحة في الزردخانه كما أمرهم بالإقامة في طباق القلعة ولا ينزلوا إطلاقاً إلى الميدان⁽⁶⁴⁾. وفي يوم 27 ذي القعدة عام 926هـ / 20 ديسمبر 1520م أخذ خير بك مفاتيح الأمانة التي في القلعة وسلمها لجماعة من الأتراك وطرد البوابين والغلمان، كما أبطل الطهارة وأقام جماعة من الترك لوضعهم وأبطل المقرئين الذين كانوا يتلون في القلعة والمؤذنين كذلك⁽⁶⁵⁾.

مسجد السارية (سليمان باشا) :

وكان هذا المسجد الذي أنشأه بالقلعة الوالي سليمان باشا 935هـ / 1528م على طراز مساجد الأستانة، استنبط طرازه من بعض الكنائس البيزنطية تعلوه قبة كبيرة مكسوة بالقاشاني، قبالتها صحن كبير مكشوف تحيط به أرصفة ذوات قباب صغيرة كسيت بالقاشاني، وفي داخل المسجد كتابة تاريخية عن إنشاء هذا الجامع نصها: «قد بنى وعمر الجناح العالي مملوك سلطان السلاطين سليمان سلطان بن سليم خان من آل عثمان - أدام الله دولته إلى يوم الدين - هو أمير الأمراء المصريين سليمان باشا - اللهم أجعله من الفائزين - مسجداً لوجه الله المعين طلباً لمرضاة رب العالمين، ليعبدوا فيه الله، فاركعوا لله مع الراكعين»⁽⁶⁶⁾.

مسجد أحمد كتحدا:

وقد شيد مسجد آخر بالقلعة في العهد العثماني وقد بناه الوالي أحمد كتحدا 1109هـ/1698م، وعلى أحد جدره كتابة باللغة التركية يستدل منها على اسم منشئه وتاريخ انشاء المسجد، وقد بين على خريطة القاهرة التي وضعها رجال الحملة الفرنسية في عام 1798م باسم المسجد الغربي. وأيضاً نهض الوالي إسماعيل باشا التركي 1111هـ-1116هـ بإصلاحات شتى في مباني القلعة، لا سيما في زاويتها الجنوبية الغربية حيث سكن الباشوات، وكذلك رمم قاعة الغوري التي بالبستان، وبنى صهريجا بداخل القلعة⁽⁶⁷⁾.

القلعة في أيام محمد علي وخلفائه 1805م-1936م:

مرت أربعة أعوام بين جلاء الفرنسيين وتولي محمد علي لمصر، لم تنعم البلاد خلالها باستتباب الأمن وأسباب السلام، وتشاء الظروف أن ينتقل محمد علي إلى القلعة ويتخذها موقعاً له، حين شبت في القاهرة فتنة الجند الأرناؤوط، ومنذ ذلك اليوم بدأ النشاط يسري في كل ركن من أركانها، وقد أصلح أسوارها، وأحيا أبراجها وأبوابها، وشيد فيها ثكن الجند ودواوين الحكم، ومصانة الذخيرة، ومدارس الجيش، وقصوراً للسكن، كما أمر ببناء مسجد⁽⁶⁸⁾.

ومن منشآت محمد علي في القلعة:

1. دار الضرب.
2. الدفترخانة (المحفوظات).
3. قصر الجوهرة.
4. قصر الحرم.
5. دار الصناعة⁽⁶⁹⁾.

الخاتمة :

بذل صلاح الدين جهوداً جبارة وكبيرة في محاربة الصليبيين، والتي كانت مليئة بالانتصارات الحاسمة، ومن قبلها استطاع القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية التي عمرت كثيراً، وتولى الوزارة في مصر بعد وفاة عمه شيركوه الذي لم يجلس سوى شهرين على كرسي الوزارة⁽⁷⁰⁾. وأراد صلاح أن يجعل مصر مقراً لأسرته، فقام ببناء القلعة التي على جبل المقطم والتي كانت تحت إشراف بهاء الدين قراقوش، والتي بذل فيها أموال طائلة وكان العمال أسرى الفرنجة ولكن صلاح الدين لم يجلس في القلعة، وتوفي وقام الكامل بإكمال البناء في القلعة وكان أول من جلس فيها هو الكامل. وحدثت تحسينات كثيرة في القلعة في عهد الأيوبيين والمماليك والأتراك

والعثمانيين وكان لمحمد علي باشا دور كبير فيها وكانت من أهم منشأته مسجده الفخم⁽⁷¹⁾.

النتائج:

1. تعتبر قلعة صلاح الدين من أضخم القلاع الحربية التي شُيدت في القرون الوسطى.
2. قام ببنائها بهاء الدين قراقوش، أشهر من عرفهم التاريخ الإسلامي في فترة الحروب الصليبية.
3. أسوار هذه القلعة الشامخة بها كثير من أحداث تاريخ مصر.
4. في العصر الأيوبي أصبحت القلعة مقراً للأسرة والحكم.
5. ازدادت أهمية القلعة في العصر الأيوبي والملوكي والعثماني حتى عهد محمد علي الذي قام فيها بإصلاحات كثيرة.
6. تمثل معلماً من معالم تاريخ العالم الإسلامي مثلها في ذلك قلعة حلب.

التوصيات:

1. ضرورة الاهتمام بالمناطق الأثرية والمحافظة عليها.
2. على الأجيال القادمة دراسة الشخصيات التاريخية للاستفادة من أعمالها العمرانية
3. معرفة مدى الدقة والجمال في العمارة التي برع المسلمون في تشييدها مثل ما وجد في القلاع والمساجد وغيرها من العمارة الإسلامية.

المصادر والمراجع

- (1) المقرئزي تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ)، السلوك لمعرفة الملوك - تحقيق محمد مصطفى زيادة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 4391م - 8591م ، ص1.
- (2) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 0691م، ص5.
- (3) سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحيائها، مكتبة النهضة الوطنية، القاهرة، 2691م، ص43.
- (4) بول كازانوف، ترجمة أحمد دراج، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للمكتبات، القاهرة سنة 4931هـ-4791م، ص72-82.
- (5) بول كازانوف، نقلًا عن ابن خلكان: سيرة صلاح الدين مجموعة (، Histories , crosiades, 111,P.399)
- (6) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ط4، القاهرة، 1891م.
- (7) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج5، القاهرة، 7691م، ص061.
- (8) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، القاهرة، 5531هـ/6391م، ص45.
- (9) ابو الفداء: اسماعيل بن علي بن عماد الدين 237هـ-2321م، المختصر في اخبار البشر، القسطنطينية 6821هـ-9681م، ج3، ص26.
- (10) نظير السعداوي، التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة، القاهرة، 7591م، ص59، وأحمد عبد الجواد الدمي: صلاح الدين الأيوبي، ط1، مؤسسة الخانجي، مصر 7691م، ص16-26.
- (*) كريكلان: برج نصف مستدير، يعرف ببرج الطرفة ومنه يمتد سور إلى برج المطر، نظير السعداوي، المرجع السابق، ص59.
- (11) صالح مجدي، ميادين الحصون والقلع، مرجع سابق، ص02.
- (12) أحمد عبد الجواد الدمي، مرجع سابق، ص26، 36، 46.
- (13) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص79.
- (14) ابو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي 566هـ-8621م، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، دار الأندلس الخضراء (جدة)، ط2، 0241، ج2، ص73.
- (15) القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء (ت128هـ -81241م)، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، عن المطبعة الأميرية، بلا تاريخ، ج3، ص863-963.
- (16) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار - طبعة بولاق - القاهرة 0721هـ -3581م ج3، ص033، وعبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص56-66.
- (17) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص2، 399، Hist,Sc,et,milit,V,llp:399
- (18) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص73.
- (19) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (20) حسن الباشا وآخرون، القاهرة تاريخها فنونها وآثارها، د. ط، د. م، ص974-084.

- (21) المقرئزي، الخطط، ج3، مصدر سابق، ص502.
- (22) المقرئزي، المصدر نفسه، ص132.
- (23) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (24) حسن الباشا وآخرون، مرجع سابق، ص701.
- (25) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص73
- (26) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة - تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم القاهرة1881م، ج1، ص13.
- (27) (27) حسن الباشا وآخرون، مرجع سابق، ص184، 284، 384.
- (28) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص901.
- (29) المرجع نفسه، ص301.
- (30) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص14-04
- (31) صالح مجدي، ميادين الحصون والقلاع، مرجع سابق، ص91 .
- (32) المرجع نفسه ص91.
- (33) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص14-24.
- (34) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (35) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص93.
- (36) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص8-9
- (37) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص401 .
- (38) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص9-01.
- (39) المرجع نفسه، ص11-01.
- (40) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص34.
- (41) 41(*) النوبة: بفتح النون الموسيقى العسكرية، ولا تزال تُضرب بالجزائر بعد العشاء، (بول كازانوف، مرجع سابق، ص99).
- (42) المرجع نفسه، ص89، 99، 001.
- (43) المرجع نفسه، ص001.
- (44) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص54.
- (45) بول كازانوف، مرجع سابق، ص101-001
- (46) الجبارج: الجُبرج بالضم من طير الماء جمع جبارجوجباريج.
- (47) الجامع الذي كان موجوداً بالقلعة في ذلك العهد وقد هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في جامعته الذي أنشأه عام 817هـ وهذا الجامع لا يزال موجوداً.
- (48) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص31.
- (49) 49(3) المرجع نفسه، ص51.
- (50) ابن واصل، أبوعبد الله بن محمد بن سالم بن نصرالله المازني التميمي الشافعي الحموي، ت796هـ: شفاء القلوب ومفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق، جمال الدين الشيال وحسن

- محمد ربيع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 3591-7791م، ص 691
- (51) عبد الرحمن زكي، سابق، ص 41-51.
- (52) المقرئزي، الخطط، ج 3، مصدر سابق، ص 702.
- (53) سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، أعلام العرب، ص 531.
- (54) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 51، 61، 71.
- (55) المرجع نفسه، ص 51، 61، 71.
- (56) محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. م، د. ت، ص 203-303.
- (57) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 02.
- (58) المرجع نفسه، ص 12.
- (59) المقرئزي، المصدر السابق، ص 212.
- (60) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ص 79.
- (61) ابن إياس محمد أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (ت 329هـ) عاصر سقوط دولة المماليك، تحقيق خليل إبراهيم دار الفكر سنة 2991م، ص 072.
- (62) لمقرئزي، الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 602.
- (63) العيني، بدر الدين محمود، ت 558هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور، تحقيق محمد أمين، ص 422.
- (64) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ص 79.
- (65) العيني، المصدر السابق، ص 102.
- (66) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 95، 16.
- (67) القلقشندي، مصدر سابق، ص 072.
- (68) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 63.
- (69) حسن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 53.
- (70) أحمد باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج 5، ص 41.
- (71) سعيد عاشور، مرجع سابق، ص 97.